

وليام پپر

(WILLIAM POPPER)

المستشرق الامريكى

للدكتور عزيز سوريال عطية

فى يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٤٩ اجتمعت كلية ردهت من كبار المستشرقين والعلماء الامريكيين على اصدار مجلد «١» ضخيم يقع فى قرابة خمسمائة صحيفة لاهدائه الى أستاذهم وزميلهم وليام پپر فى مناسبة بلوغه العام الخامس والسبعين من حياته الخصبة المليئة بجلال الأعمال والخدمات العلمية فى ميدان الدراسات الشرقية بوجه عام ، واللغات السامية والعربية بوجه خاص ، فى أمريكا • وهم بهذا انما يقدمون تحية الجيل الجديد الى الجيل القديم ، ويضربون مثلاً رائعاً من مثل الاخلاص والولاء والتقدير وذكر الجيل لشيخ من شيوخهم ، لا عن طريق الخطابة واللفظ الاجوف ومصيره الى الزوال ، وانما عن طريق البحث والتنقيب والكشف عن غوامض العلوم والفنون ، التى طرق هو بابها من قبلهم فانفتح أمامه على مصراعيه ، فولج وولج من بعده تلاميذه الذين شاءت الاقدار والاخلاق أن يكتب لاسمائهم الخلود الى جوار أستاذهم بتخليد اسمه فى هذا السفر الجديد •

وقد قام بالاشراف على نشر هذا المجلد خلفه فى كرسى اللغات السامية وآدابها بجامعة كاليفورنيا بيركلى (Berkeley) المستشرق المعروف الاستاذ

(١) ظهر هذا المجلد بعد ذلك بحوالى سنتين تحت العنوان الاتى :

Semitic and Oriental Studies Presented to William Popper. University of California Publications in Semitic Philology, Vol. XI. University of California Press. (Berkeley and Los Angeles 1951).

الدكتور والتر فيشيل (Fischel) ، واشترك في تحرير أربعة وثلاثون
باحثاً ، يطيح الذهن عند استعراض بحوثهم ، التي كادت تشمل المشرق
والمغرب من اليابان والصين على شاطئ المحيط الهادى الى كاليفورنيا
وسان فرنسكو على الشاطئ الآخر من ذلك المحيط ، ولكن عبر العالمين
القديم والجديد .

وان مجلدا كهذا ليصدع الانسان بتعدد مناحى موضوعاته ، وتباين
طبائعها ، وتباعد ميادينها ، الى حد يدفعنى الى الاعتراف بعجزى عن الامام
بأطرافه ، ومطالعة ما تفيض به صفحاته فى جملتها مطالعة مستنيرة من أولها
لآخرها . وهذا المجلد ان دل على شىء اذن فهو انما يدل على قدر المهدى
اليه وعلمه وفضله وأثره فى سجل العلم والخلود .

قابلت وليام بير بعد ظهر يوم من أيام الربيع الفاتت بمنزله الخشبي
على ربوة من ربى مدينة بركلى الجامعية ، تحيط به الحدائق الغناء ،
ويشمله الهدوء التام ، وكان الدكتور فيشيل فى صحبتي ، فاستقبلنا بائتمامته
المساحة رغم ما كان يتولاه من ألم بدنى على أثر كسر فى عظام ساقه وهو
يتنقل بين أرجاء الجامعة سعياً وراء الكتب والمراجع بسرعة لم تتحلىها منه
منهما تحملها عقله الفتي . وكان بير مسلماً مرجحاً باللغة العربية الفصحى ،
تجاذبنا أطراف الحديث زهاء الساعة بالانجليزية والعربية على السواء ،
وقال لى أن أغلب الاعمال التى يضطلع بها فى شيخوخته نبتت فكرتها عند
وهو فى صدد نشر كتاب « النجوم الزاهرة » منذ أربعين عاماً خلت ، ولم
يسعفه الزمن والجهد لتحقيقها مع أعبائه الجامعية ، أما وقد تقاعد عن الجامعة
فهو الآن يسعى فى تحقيقها وإخراجها الى حيز الوجود ، وأول دراساته
فى ابن تغرى بردى « كتاب مقياس النيل » .

وكان وليام بير فى السابعة والسبعين عندما رأيته ، وهو قصير القامة ،
نحيل الجسم ، حليق الوجه ، كبير الرأس ، أشيب الشعر ، عاش للعلم
والساميات ، كما يعيش لها اليوم فى خلوته . ولد فى سانت لويس (St. Louis)

من مقاطعة مسوري (Missouri) في يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٧٤ ، ودرس اللغات السامية بجامعة كولبيا في نيويورك تحت اشراف الأستاذ رتشارد جوتيل (Richard Gottheil) ، وأحرز فيها درجة البكالوريوس (A.B.) سنة ١٨٩٦ ، ودرجة الماجستير (M.A.) سنة ١٨٩٧ ، والدكتوراه (Ph. D.) سنة ١٨٩٩ - وبعدئذ أمضى أعواما ثلاثة في جولات واسعة بأوروبا والشرق الاوسط ، حضر أثناءها على جهايزة العصر من المستشرقين الاوربيين أمثال يوتنج (Euting) ونولدكه (Nocklake) ودرنبورج (Derenbourg) وغيرهم ، ثم قضى السنة الاخيرة (١٩٠١ - ١٩٠٢) من تلك البعثة في زيارة بعض أقطار الشرق الاوسط وهي مصر وسوريا وفلسطين والعراق ، حتى يتيح بذلك لنفسه فرصة تطبيق العلم على العمل ، ويقوم لسانه في الحديث باللغة العربية مع أهلها من الناطقين بالضاد في أوطانهم الاصلية .

فلما عاد الى وطنه ، بدأ حياته الاكاديمية بجامعة كولبيا حيث اشتغل بالمحاضرة في اللغات السامية مع أستاذه القديم ، كما انتدب رئيسا للقسم الشرقي من مكتبة نيويورك العامة ، واستمر في هاتين الوظائفين حتى سنة ١٩٠٥ ، حينما انتقل الى جامعة كاليفورنيا التي قضى فيها بقية أيام خدمته ، فعين مدرسا للغات السامية بها في تلك السنة ، وأمضى بهذه الوظيفة عشرة أعوام كاملة حتى نضج نضوج العلماء ، وترقى أستاذا مساعدا في سنة ١٩١٥ ثم أستاذا لكرسي اللغات السامية وآدابها سنة ١٩٢٢ وقد قارب الخمسين من عمره ، وظل يشغل هذا الكرسي حتى سنة ١٩٤٥ ، فلما تقاعد عن العمل بالجامعة انتخبه زملاؤه بالاجماع في السنة ذاتها أستاذا فخريا بينهم (Professor Emeritus) لكي يكون له في الجامعة مالهم من الحقوق ، وعليه من الواجبات ما يضمن لهم الانتفاع بطويل خبرته وصائب توجيهاته .

وقد اتجه پير منذ بداية عهده بالساميات الى الانصراف لدراسة أصول اللغتين العبرية والعربية ، وقطع في هذا الميدان شوطا بعيدا ، وكتب ونشر فيهما الشيء الكثير ، وله نظريات وبحوث تحليلية في أدب اللغة العبرية

القديم ، أهمل مؤلف معروف عن سفر أشعيا النبي «^١» من كتب العهد القديم ، وقد كان لآرائه صدى هائل في توضيح غوامض الفكر العبراني ومعاني الاساليب الادبية بأشعار نبوة أشعيا . ولكن عمله الجبار انما يقع في دائرة الدراسات العربية حيث قام بنشر كتاب « النجوم الزاهرة » في ملوك مصر والقاهرة » لابي المحاسن يوسف بن تغرى بردى «^٢» من كبار مؤرخي القرن الخامس عشر الميلادي (توفي سنة ١٤٧٠ م) .

ولكتاب ابن تغرى بردى هذا قصة قديمة ، فقد كان أول من استلقت الانظار اليه المستشرقان الهولنديان خوينبول (Juynboll) وماتشاس (Matthes) في أواسط القرن الماضي ، فنشرا منه القسم الاول «^٣» ، ثم انقطعاه الى أن ظهر المستشرق الفرنسي باريه دي مينار (Barbier de Meynard) فنشر « استخراجات » منه بالعربية صحبها بترجمة فرنسية في موسوعة الوثائق الخاصة بالحروب الصليبية «^٤» بباريس سنة ١٨٨٤ - وبعدئذ أسدل الستار على كتاب « النجوم الزاهرة » ، وظل في زوايا النسيان الى أن أحياءه پير بمواصلة العمل الاصلى الذى بدأه المستشرقان الهولنديان فأخذ في نشر الجزء تلو الجزء ، منذ سنة ١٩٠٩ ، حتى أتم اصدار احد عشر مجلدا منه في سنة ١٩٣٩ . وقد أورد فيه بكتاب آخر انتهى من نشره في سنة ١٩٤٢ ويشتمل

(١) Parallelism in Isaiah. University of California Publications in Semitic Philology, Vol. I, Nos. 3 — 5, pp. 267 — 552. (Berkeley 1918 — 1923.)

(٢) University of California Publications in Semitic Philology. (Berkeley 1909 — 1942)

بدأ كتاب النجوم بالقسم الثانى من الجزء الثانى وانتهى فى الجزء السابع سنة ١٩٣٩ وقد ذيله بملاحظات من كتاب « حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور » لابن تغرى بردى أيضا — انظر كذلك البحث الذى نشره المؤلف فى موضوع لابن تغرى بردى وعنوانه :

« Hülal as-Sābi in Ibn Taghri-Birdi's an-Nujūm Az-Zāhira », in Mélanges Hartwig Derenbourg 1844 — 1908. (Paris 1909) pp. 237 — 243.

(٣) T.G.J. Juynboll and B.F. Matthes, vols. I and II part I (Leiden 1855, 1861).

(٤) C.A.C. Barbier de Meynard, Extraits du Noudjour ez-Zahireh. (1) Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Orientaux. (Paris 1884). Vol. III, pp. 475 — 509.

على منتخبات من كتاب «حوادث الدهور في مدى الايام والشهور» الذي يعتبر
مكملا لكتاب «النجوم الزاهرة» ، وقد قصد ابن تغري بردي أن يجعل منه ذيلًا
لكتاب «الساوكة لمعرفة دول الملوك» للمقريزي . ونظرا لاهمية كتاب «النجوم
الزاهرة» كمنبع من منابع التاريخ المصري الوسيط ، عمدت دار الكتب
في القاهرة الى اصدار طبعة مصرية «١» منه لتجمله في متناول القراء
المصريين .

وللاستاذ پير رسالة أخرى في سنى تقاعده : وابتهاده عن التدريس
والاعباء الجامعية ، والتفرغ للعمل العلمى البحت ، وتدور هذه الرسالة
حول ابن تغري بردي . فهو يزعم اصدار سلسلة من الدراسات والبحوث
التاريخية التى استوحاها من نشر نص «النجوم الزاهرة» . وقد بدأ هذه
السلسلة بمجلد أول موضوعه «مقياس النيل» «٢» ، وهو أكمل ما كتبه
كاتب عن المقياس ، صاغه مؤلفه فى أسلوب علمى يمتاز بالدقة الرياضية
التي بناها على منطق الأرقام ، فجاء هذا الكتاب العجيب نموذجاً من
نماذج البحث فى التاريخ والآثار والجغرافيا التاريخية يكاد لا يدانى . وقد
قسم المؤلف هذا الكتاب الى قسمين كبيرين : الأول عن تاريخ المقياس
ووصفه منذ أقدم العصور ، والثانى عن الاحصاءات المتعلقة بمياه النهر فى
ارتفاعها وانخفاضها ، وقد جمعها منذ الفتح العربى ٦٤١ م الى أخريات
القرن الماضى فى سنة ١٨٩٠ م .

ويذكر فى صدر القسم الأول تطور المقياس وانتقاله من مكان الى
مكان ، ويتضح من روايته أنه أنشئت فى عصور مختلفة سبعة مقاييس
مستقلة بمنطقة القاهرة وما حوالها ، وهى الآتية :

(١) ظهر من هذه الطبعة بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٤٩ عشرة مجلدات وآخر
ما وصلت اليه سنة ٧٥٨ هـ .

The Cairo Nilometer. Studies in Ibn Taghri Birdi's Chronicles (٢)
of Egypt : I. University of California Publications in Semitic Philology, Vol.
12. (Berkeley and Los Angeles 1951.) Pages xl, 269.

(١) مقياس منف ، وكانت آثاره لاتزال ظاهرة حتى القرن الخامس عشر ، وقد قيل ان قراءاته كانت تؤخذ زهاء قرن ونصف قرن بعد الفتح العربى لمصر سنة ٦٤١ م .

(٢) مقياس « قيسارية الاكسية » وكان واقعا بمصر القديمة على مقربة من حصن بايلون ، وأمره غامض ، وقد ورد ذكره فى ياقوت والمقرئزى وابن تفرى بردى ، ثم غفت معالمه فى صدر العصر الاسلامى .

(٣) مقياس « قصر الشمع » أو حصن بايلون بمصر القديمة وكانت مياد النيل واصله اليه فى ذلك الوقت .

(٤) مقياس حلوان ، أنشأه عبد العزيز بن مروان عندما نزع بعاصمة البلاد من مصر القديمة الى بقعة تبعد عشرة أميال جنوبها ، فابتنى المقياس الجديد بالعاصمة الجديدة هنالك ما بين سنتى ٦٥-٨٦ هـ / ٦٨٥-٧٠٥ م .

(٥) مقياس الروضة الواقع على الطرف الجنوبى من الجزيرة ، بنأه أصلا فى سنة ٧١٥ م أسامة بن زيد التتوخى أمير الخراج فى عهد الوليد (٨٦-٩٦ هـ / ٧٠٥-٧١٥ م) وسليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩ هـ / ٧١٥-٧١٧ م) ، ثم تجدد أو بنى آخر غيره فى نفس المكان فى عهد المتوكل سنة ٨٦١ م .

(٦) مقياس الروضة الغربى بنأه أحمد بن طولون ما بين ٨٦٨ و ٨٨٣ م على مسافة قدرها نصف ميل من المقياس الجنوبى على شاطئ الجزيرة الغربى حيث يقال أن آثاره ظلت شاخصة للعيان حتى سنة ١٨٠٠ م ، وكان المقصود من بنائه ضبط القياس عندما تهب الرياح الجنوبية وتعلو الامواج فى المقياس الجنوبى .

(٧) مقياس الخازن عند مرسى السفن على شاطئ مصر القديمة ، بنى فى عهد الاخشيديين بين ٣٢٣-٣٥٧ هـ / ٩٣٥-٩٦٨ م ، ويقال ان اسم

بأنه أبو بكر محمد بن عبد الله الخازن ، وذكره ياقوت وابن دقماق
وابن تغرى بردى وغيرهم ، وقد عفت معاملته ولم يعثر له على أثر .

ولاشك أن أهم هذه المقاييس وأبقاها هو مقياس الروضة الجنوبي ،
وقد أفرد له المؤلف فصلا جمع فيه ما قيل في وصفه من الاصول التاريخية ،
واتبع في علاج موضوعه طريقة لها طرافتها ، اذ بدأ بالكتاب المحدثين في
القرن التاسع عشر ورجع القهقرى الى القرن التاسع الميلادى ، فأخذ عن
لوپير (Le Père) ومرسيل (Marcel) سنة ١٧٩٨ - ١٨٠٠ م فى الحملة الفرنسية .
ثم الاسحاقى سنة ١٦٢٣ م فالقرىزى فى القرن الخامس عشر ، وابن دقماق
حوالى سنة ١٤٠٠ م . وابن ابيك سنة ١٣٣٣ م ، وابن خلكان سنة ١٢٥٦ م ،
والقزوينى فى القرن الثالث عشر ، وابن جبير سنة ١١٨٣ م ، والادريسي
حوالى ١١٥٤ م . والمسعودى سنة ٩٤٣ - ٩٤٤ م ، واحمد بن الحاسب
سنة ٨٦١ م ، وديونيسيوس الانطاكى بطريك اليعاقبة سنة ٨٣٢ م .

وبعد أن تتحدث المؤلف عن النقوش التى على المقياس ، وعن ارتفاع
انفيضان الى الستة عشر ذراعا التقليدية لجباية الخراج ، وعن شق الخليج ،
وغير ذلك من الموضوعات ، ينتقل الى القسم الثانى وهو القسم الاكبر من
الكتاب ، جله عن أحصاء أرقام ارتفاع مياه النيل من الاصول التاريخية
فى باين : أولهما يشتمل على الارقام التى وردت فى كتابات ابن تغرى بردى
وابن الحجازى وابن اياس وابن ابيك وابن الفرات وابن الفخرى والمقرىزى
والقلقشندي وعبد اللطيف البغدادى والمسعودى عن الفترة التالية للفتح
العربى من سنة ٦٤١ م الى سنة ١٥٢٢ م . وثانيهما من سنة ١٥٢٣ م الى
سنة ١٨٩٠ م أخذ أرقام جداولها عن على باشا مبارك والامير عمر طوسون
وبعض الرحالة الاوربيين .

وعلى ضوء تلك الجداول يدرس المؤلف النهايات العظمى والصغرى
للانفيضان بالذراع والاصبع ، ويقارن بعضها ببعض ، من عام الى عام ، ومن
عصر الى عصر . ويطلع من هذه البحوث الطويلة المضنية بنت نتائج

يجملها في مقدمة الكتاب لتصحيح الاوضاع الشائعة عن المقياس ، والذبذبة
الحاصلة في ضبط طول الذراع والاختلاف في تقديره من عهد الى عهد ،
وعن تحديد نقطة الصفر التي يبدأ منها القياس في قاع بحر المقياس ،
وسلسلة التقاويم التي يرتبط بها تاريخ الفيضان ، والحكم على تكامل
الفيضان عندما تصل مياهه الى الستة عشر ذراعا التقليدية ، والارتفاع
المضطرد في قاع النهر بتراكم الغرين وما يترتب عليه من ارتفاع سطح
مياهه . وكل هذه مشكلات كبرى يعجب القارئ كل العجب اذ يدرك أن
كاتبها وصل الى تحقيقها من مصادر أدبية في وقت لم تكن العلوم الرياضية
والهندسة المدنية قد بلغت فيه شأوا يمكن الباحث من معالجة هذا الموضوع
دون كبير عناء .

لاغربة اذن أن يكون وليام بير في شيخوخته موضع تبجيل تلاميذه
وزملائه وأصدقائه الكثيرين الذين لم يترددوا لحظة في للمساهمة في ذلك
المجلد العلمي الكبير في الدراسات الشرقية والسامية لاهدائه اليه . ويشتمل
هذا المجلد على أربعة وثلاثين مقالا ليس من اليسير أن نلم بتحليلها في هذه
الصفحات العابرة ، ونكتفي بالتدليل على بعضها « ١ » مما نظن أنه يهم أغلبية
قراء العربية فيما يلي من السطور :

Peter A. Boodberg : Three Notes on T'u- chûk Turks. Pages 1 — 11.
Walter J. Fischel : Ibn Khaldûn's Activities in Mam'lûk Egypt (1382.—1406).
Pages 103 — 123.

William M. Green : Augustine's Use of Punic. Pages 179 — 190.

Ernst H. Kantorowicz : Dante's « Two Suns ». Pages 217 — 231.

A.L. Kroeber : The Novel in Asia and Europe. Pages 233 — 241.

Wacław Lednicki : Ex Oriente Lux (Mickiewicz and Pushkin). Pages 243 —
261.

C. Grant Loomis : The Genesis and the Influence of the Metrical Psalms of
Martin Opitz. Pages 285 — 296.

Henry L. F. Lutz : Plaga Septentrionalis in Sumero - Akkadian Mythology.
Pages 297 — 309.

Otto Maenchen - Helfen : Arabic Nomenclature in the Characters of Lope
de Vega's Plays. Pages 339 — 343.

(١) ذكرنا البحوث التي لها علاقة بالشرق الاوسط مع أسماء مؤلفيها
والصفحات التي ظهرت عليها في هذا المجلد .

Leonardo Olshki : The Wise Men of the East in Oriental Traditions. Pages 375 — 395.

George Rentz : Pearling in the Persian Gulf. Pages 387 — 402.

Edward H. Schafer : Iranian Merchants in T'ang Dynasty Tales. Pages 403—422.

H.R.W. Smith : A. Meeting of East and West. Pages 423 — 427.

Ronald N. Walpole : Charlemagne's Journey to the East. — The French Translation of the Legend of Pierre de Bauvais. Pages 433 — 456 .

ومهما يكن من شيء فإن هنالك ملاحظة أخيرة لابد من تسجيلها في ختام هذا المقال . ألا وهي أن ظهور هذا الكتاب التذكاري الذي نحن بصددده جاء في نفس العام — عام ١٩٥١ — الذي طلع فيه ولیم پیر علی الناس بكتابه « مقياس النيل » . ولهذا الاتفاق معناه ومغزاه ، فالرجل اذن لم يطر سجال جهاده العلمي بهذا التكريم أو التتويج . ولو أن ذلك أصبح أمرا طبيعيا بعد أن توافر على نشر المجلدات تباعا زهاء مدة تربو على نصف قرن من حياته الزاخرة . بل أننا نراه اليوم في شيخوخته يواصل يومه بأمله في الجهد والاجتهاد والانتاج العلمي ، وهو يجاهر بأن كتاب المقياس الذي نشره وقد قارب نهاية الحلقة الثامنة من العمر انما هو الحلقة الاولى من سلسلة من الدراسات التي يعمل على اتمامها اذا أسعفته الايام وأمهله الاقدار .

عزيز سوربال عطيه